

ناصر قنديل

حديث الجمعة لهذا الأسبوع عبّق بالصباحات التي نرسلها لمن يستحقها بجدارة: صباحات عطرة لدماء الشهداء ولأطفال حمص الأبرياء. صباحات فؤاحة بياسمين الشام إلى حمص الفداء وصبحها الحزين. صباحات إلى تلك الطقوس الجميلة البسيطة التي تبدأ بتلقيم ركوّة البنّ على النار وتتخللها تلك الشراكة بين فيروز والعشق وخيوط النور الأولى. صباحات لجمال عبد الناصر في يوم رحيله، ولكريستينا دي فرنانديز رئيسة الأرجنتين التي تحدت العبد أوباما وأسياده بني «إسرائيل» من على منبر نيويورك. والصباحات لذلك الريف ومعه الفلاح ونشاطه وحبّة الحنطة المنتظرة المطر المدلل.

وفي حديثنا لهذا الجمعة «قالت له» وحوار في الحب لا يخلو من العتب والتساؤل والأجوبة الناجعة. وفيه أيضاً كلامٌ تغزوه الرياضيات فتشقلب المعاني وتعيد ترتيبها. وفيه من الذكريات ما كتبنا منذ سنة حول الإفراج عن مخطوفي أعزاز، وذكاء ربطه بملف مخطوفي عرسال.

صباحات للمطر والعشاق والشهداء

قاعة سينما احتشد الناس فيها لحضور فيلم بوليسي مشوق، يبدأ الفيلم بطلقة رصاص ومحقق يبحث عن القاتل، فيقول قاطع التذاكر لكل الداخلين ستستمتعون بهذا الفيلم كثيراً فالمحقق هو القاتل، فلا تدعوهم يخدعونكم بالتشويق. لأمثال هؤلاء خلقت لصباحاتنا أشواك الورد تصون عطرها لتدعي أناملهم وتمنعهم من الكتابة حرصاً على النظافة العامة، وعلى نقاء هواء الصباح من تلوث سواد مشاعرهم العقلية، ولنا أن نخبرهم أن بيننا وبينهم في كل مرة يشد غبار التصريحات عن الحروب تحدّ، ينتهي بهزيمة عقولهم المنتفخة كطبول جوفاء، وهذه المرة نعيد لها لا حرب على سورية، ولا منطقة عازلة، والمعارضة المسلحة المعتدلة كذبة فارغة، ودور المستنقفين في الحروب لأدعاء فهم ليس عندهم أجديته، لا يختلف عن فرقة عملاء تتخصّص بتعميم الاحباط، لا لشيء إلا لأنهم يكرهون الصباح لسواهم طالما حرموا من متعة عطر ورده الفواح. فصباحهم شوك وصباحكم ورد، تلك قسمة عدل وإنصاف من قلب لا يهون ولا يخاف، والختام لأدعاء فهمهم المصطنع، حكاية بيكاسو مع لوحة ماسح الأخذية، التي وجد رجلاً مستنقفا يقف قبالتها، فنقدم منه ليساله عن سبب الاهتمام، فيقول الرجل أنه لاحظ خللاً في شكل الحذاء، فاقنع بيكاسو وأصلح الخلل، ولما عاد ورأى الرجل مرة ثانية متمسراً أمام اللوحة، سأله عن السبب فقال شكل الأنف لا يتناسب مع شكل العين، فسأله هل أنت فنان؟ فقال الرجل لا أنا كندرجي، فقال «إذا كندرجي خليك بالصباطة» (الكندرجي أصلها تركي).

● الصباح ثقة لا يعرفها المتلونون وضعاغاف النفوس، لذلك يمنحون كسل النوم مع طلوع الشمس أجمل الكلام، فمن يحاكيه الصباح وورده المتفتح كانشقاق الفجر عن الخيط الأول من خيوط النهار، يعرف أن الحياة صباح، وأن من نام الصباح مات فيه النهار، فصار الذهاب فيه من أعمال كالذهاب إلى عزاء متناقل الخيطي متناثب الكلمات، والذين تعوزهم الثقة يكرهون الصباح، فعندما ينهزم لمغادرة قفص النوم يمضون نهارهم يتحدثون عن الإرهاق، حتى العشاق الذين لا يقدرين قيمة الصباح لا يعرفون قيمة السهر والليل والقمر. فإساعات عندهم لا تتميز بكمية إشعاع الضوء فيها وتناغمها مع موسيقى القلب والجسد، فما يصح عندهم في منتصف الليل يصح في رابعة النهار، حتى الطعام مواعيده وأصنافه فيها من طعم الضوء الكثير ولها مواعيد حضور ومواسم تلونها الصباحات. والقطاف صباح والغرس صباح، وإسألوا الفلاح. والشعر صباح والفكر صباح وإسألوا الشعراء والفقهاء. والبحر مدّ وجزر في الصباح، والصيدون برأ وبحراً صباح، لو يدرك النيام قيمة معايير الضوء في صنع السعادة والفرح والنشاط والثقة والقوة لأدركوا لماذا يمنح العاملون في فترات النوم الصباحي بدلاً مضاعفاً لأنهم سيجرون من أغلى ما لا يعوضه بدل. لذلك ترى غالبية المتشائمين نياما مع الصباح فلك أن تنشر محراث تهاؤلك على بيادهم ولا تخشى حضورهم. وغالبية المشككين نيام في الصباح فلك أن تزرع حبات حنطة الثقة بين جنباتهم وهم نيام لا ينتبهون. وغالبية الذين يتذكرون في العشق والعتاب حساب ساعات نومهم لسرقة ساعاته في غياب عن أجمل كلام العشاق، يعيدون كلام الليل في الصباح... صباح الخير لمن يتقن لغة المواعيد والضوء من ساعات الوضوء لصلاة الفجر إلى الطلقة الأولى مع الضوء الأول... أشتاق لصباحاتك أيها الغالي على فنجان قهوة من بائع جوال على رصيف بحري، ومقعد قديم وباب سيارتنا مفتوح وسلاحنا حاضر، وكلام مع طلوع الفجر وريحة حناجر، وألف سلام لجسدك الطاهر وروحك والحاضر... صباحاتكم خير وثقة وأفراح لأوطان يحرسها الحب والسلاح.

● صباح الخير كريستينا دي فرنانديز رئيسة الأرجنتين دخلت كلماتك إلى قلوبنا فلا حاجة لك أن تنقلها مكبرات الصوت ولا الفضائيات وترجمتها قلوبنا فلا حاجة للمترجمين... لقد قرأنا خطابك المحظور نشره عن الرئيس الأسد والسيد نصر الله من منبر نيويورك بتقاسيم وجه العبد أوباما لأسياده بني «إسرائيل».

● صباح حبة المطر تتعالى على رؤوس اصابعها كي لا تؤذي حيث تقع، وتترنح على حبات التراب العطشى بعد مواسم الحر واليباس، فيحدث العناق الصباحي الذي من دونه لا جمال ولا روح في الحياة. صباح حبة الحنطة في بطن الأرض تنتظر هذا العناق فتشرب بعنقها لتلتقف بعضاً من رائحة تراب تليل ومطر تدلل، وتلقي زفرات الخير والصعداء أملاً بموسم غلال وافر، يوقظ الفلاحين، كلقاء الموج والرمل في المدّ والجزر. سلام بأطراف الكفوف بين اليابسة والبحر، يتكرر بإيقاع وانتظام ليطلع نغم ترقص على صداه شبك الصيادين، فتموج وردة الصبح وهي سكرى من النعاس تنتظر قطرة الندى، لتبدأ أوراقها بالتناوب والتمدد والتشدّد والتراخي، حتى يكتمل شكلها الدائري وتخرج فوخ عطر مكنون، كأنها في الكون آيات جمال مخبأة لكنها مكشوفة، كمثل سينما ثلاثية الأبعاد لا يفهم مشاهدتها إلا من يلبس نظارتها، والعدد محدود لا يناله إلا العشاق والشهداء، لأنهم الوائقون حتى الجنون، من أن عناقهم يحرك الكواكب والأرواح، فعناق الشهيد والقضية عنقنا الفتى المغروم بصبيبة. صباح العشاق شهادة حق لا تزول، وصباح الشهداء عشق أبدي يطول... صباحكم خير.

● الصباح إشراقة الحياة التي يفسدها بعض المتطفلين في السهر، بترك بعض دخان مشاعرهم السوداء على صفحاته البيضاء، فنتساءل ماذا يستفيد وبماذا تفيد عشرات الأسماء التي تتفرش بها أقدامك وانت تفرك عينوك صباحاً، وكل منهم يرمي كتلة حبر على ورق، ليثبت وفقاً للتسلسل المعتمد بين سطوره، أن سورية فاقدة قدرة المواجهة وأن كل شيء مرتب ضدها والخطط مكتملة ولا أمل يرتجى، وقد دنت ساعة الموت، وكلام كهذا يمنع على الطبيب قوله للمريض حتى لو كانت التحليلات المخبرية والفحوص السريرية تؤكد دنو الرحيل. وخفافيش الصباح ليسوا أطباء ولا بين يديهم تحليل ولا فحص، بل خربشات دعس دجاج بالولح سُميت بالخطا كتابة، ويفرح هؤلاء المتطفلون بأخبارهم بأنهم سَمُوا صباحات الناس، كقاطع التذاكر في

وهي ربما كانت كذلك، وكل منا يظن أن له فيها بعضاً منها، وفيروز كالصباح تملك حرية التعديل والتعديل في مقاصد الأغنية، فمن كتبها تنتهي مهمته عند تحول الشعر أغنية لفيروز، لتصبح بعضاً من صلاة للرسول وحدهم حق التفسير والتأويل، كما يملك الصباح حق وحرية توزيع الضوء واستخدام علامات الحضور، من أشعة الشمس لمناداة بائع الكعك وصياح الديك، فكلها حواجج بين يديه يبدلها ويعدلها لزوم مزاجه. هو الصباح وهي فيروز، ولم ننتبه بعد أنهما شريكان في أرواحنا، يسكتان ويتسعديان ويملكان ويقرران ويتلاعبان، ونحن مسرح لهما يحضران معا ويرحلان معا، كل يوم فيروز والصباح، ونحن ونسأل عن العشق، والعشق هو شراكة فيروز والصباح... صباحكم فيروز.

● في مثل هذا الصباح كانت السماء مليدة بالرماد تستعد لاستقبال روح غالية. فالיום استعداد لاحتفال مهيب بانتقال جمال عبد الناصر من الأرض إلى السماء فينتظم الغيم حرس شرف وتقف النجمات تنادي بأسمائها تؤدي التحية كفرقة موسيقية وينحن القمر وتغيب الشمس وتحدّد الطرق الفرعية السالكة للمواكب الأخرى بين الأرض والسماء، لأن الراحل الكبير روح لم تغادر قيم السماء بأمرين الزهد والتواضع فكسب بهما ألف قيمة لا تضاهي؛ لأن الوطنية والشجاعة والنبيل والتضحية والوضوح والصدق والوفاء والحب والعطاء كلها ثمرات للزهد والتواضع.

كل من نرى فيه قيمة نبيله يفقد الزهد والتواضع مخادع منافق لا تصدقوا وطنية من يفقد الزهد والتواضع ولا صداقة ولا حب ولا وفاء ولا شجاعة كل من يعوزه الزهد والتواضع فقد اجتمعت هذه القيم لعلي بن ابي طالب وجمال عبد الناصر وحافظ الأسد، وهي تجتمع اليوم للجمال عبد الناصر في يوم الرحيل ألف تحية تؤديها كجنود يودعون القائد ويعاهدون، وقلوبنا ملأى بالرماد وأفواهنا تلتعلم برطب التراب وأتوفنا تعاني صعوبة التنفس، والعيون حرى بالدمع الحزين، ولولا الزهد والتواضع ما كان لنا هذا الشعور ولا هذا الصباح.



● ثمة مرات قليلة وفي تراب يختاره بعناية، يقرر الصباح الطلوع مساءً، فيصير المساء بداية نهار جديد. عندئذ يكون المطر غزيراً يروي التراب. لكن عندما يكون الدم شلالاً تجف الدموع، وعندما يكون الدم لأطفال شهداء ينظر القلب فيصير الصباح بلا صباح.

● صباح طهر دمائهم نقاء أرواحهم واشتعال أقدانهم المبكر، وقصاصات الورق المغفسة برائحة البارود ودمهم. وصباح الأم والأب والدمع الحزين والعين التي تتناقل بعد ليل طويل من الاغتسال بماء الفراق. صباح حرقة الكبد على فلذاتها المعلقة صوراً تبتسم على جدران المنزل، وقد صارت أحلام مستقبل أصحابها جزءاً من دفتر الذكريات. والناس سكارى وما هم بسكارى وحيارى وما هم بحيارى، إنهم حزاني والصبح معهم حزين. صباح الخير لحمص وصباح حب للشهداء وصباحكم صباح الوفاء.

● يطلّ الصباح أحياناً مسرعاً، فلا يكاد يرمي حبل الضوء الأول حتى يسترده، كصنارة صياد حملت صيداً ثميناً واستعجلت الرحيل، ويسدل ستارة الغيم على ضوءه، من دون أن يكون في حسابه الإفراح للمطر، لأن المطر عموماً ما قبل الصباح وما بعده، يكون الصباح مستعجلاً لأنه يريد للنفوس أن تجد ما تحتاجه في ستارة الغيم، فمن ينتظر المطر يتفاهل ولا يابه لوداع الصباح السريع. والعشاق الذين سلبتهم عقولهم أشعار نزار قباني وصوت فيروز ورائحة البن يفرحون لستارة الغيم، يخبئون خلفها قبلة لا تتوقف إلا على غليان الصدر مع الركوّة الثانية تترع الباب إيذاناً بالقدوم. والذين يرون حظهم عاثراً يستشعرون بالرمادي انقباض قلوبهم عن شيء سئى وشيك الحدوث، والذين تأخروا عن أشغالهم يجدون عذر التأخير بخداع الصباح، ومن تكاسلوا يتواطؤون مع وساداتهم لمتابعة النعاس فيسومونه نعاس الصباح المطر. ويصير جزءاً من أمراض النفس البشرية يدرسه طلاب العلوم. أما من تواجد مع ياسمين دمشق فلا تحول بدقه لا يحيد فيه عبق التفتح غيمة ولا أراجيح غيوم. فالصباح موعد منتظم بدقه لا يحيد فيه عبق مستقيم عن عرق مستقيم آخر، ولما يستوي المستقيمان يتشكل خط الصباح كحدّ سكين أفرد جناحيه ينتظر. ولأن الياستمين طوقساً لا يعرف سرّها إلا الصباح، وإيقاع الصباح المستعجل يلهم أوراق الياستمين على بعضها بخفر، ويقول أستاذنكم للرحيل المبكر واصطحاب الياستمين معي، فقد وصل جنّان شهيد، أو تجادل حبيبان حد الفراق، أو أن الناس يتناقلون كلاماً قدسيا مزوراً ويستخدمونه في السوء. المشكلة ليست في الصباح بل كيف نراه ونشم رائحة قدمه، وكيف نختلق له أسباب الرحيل ونلومه... صباحكم ياسمين مقيم.

● الصباح يكون نعساً أحياناً، لم تشبع جفونه نوماً، فلا يفتح إطباقاتها عن الضياء، ويتأخر من دون أن يغير في مواقيتنا الصباحية، فنستيقظ على وعده، ويؤدي المصلون صلواتهم، ويبدأ الخبازون تقطيع عجيبهم، وتسير عجلة تدفق الخضار من الريف إلى المدينة، ويملا الشوارع عمال يقصدون أشغالهم مشياً من أماكن بعيدة. والصباح في مثل هذه المواسم يتسّمع بالتخفي وراء غيمات الخريف، فيشتري منها أعدار الغياب. ولما يطل يأتي خجولاً بدفعة رقيقة من مطر تشرين قبل حلوله، فله أن يستعير من أيام لم تصل بعد، بعضاً من طقوسها، وتكون يدنا مشغولة بتلقيم ركوّة البن على النار، وعيننا خلف الشباك، كي لا تفوتنا لحظة سرقة الضوء الأول، فيندلق بعض من الفوران الدسم لقهوتنا على جنباتها، مع نبضة صوت فيروز «كيفك انت ملا انت»، والصبح المتناقل يظنها له غزلاً،

ذكَرْ إن تنفع الذكرى

قبل سنة كان الإفراج عن مخطوفي أعزاز، وكان ما كتبت. واليوم بدء تحرّك التفاوض عن مخطوفي عرسال، فلنقرأ ونتذكّر.

2014-10-19

قضية المخطوفين؛ إقبال الملفات

.لم يتغير شيء في قضية المخطوفين اللبنانيين في أعزاز، حتى قضية الطيارين التركيين كان يمكن أن تنتظر سنة أخرى.
..حزب الله الذي كان مطلوباً أن يتغير وصل إلى قول السيد نصر الله «إني مستعدّ أنا وكلّ حزب الله أن نذهب إلى سورية لنقاتل».
..حزب القلمون وراء الباب ولا إمكانية أن يكون حزب الله على الحياض.
..التجاوب السوري كان منذ البداية حاضراً.
..القاعدة صارت أقوى في مناطق المعارضة المسلّحة وصار بمستطاع تركيا الفاعل الرئيس في القضية أن تقول

إنها عاجزة عن التانير.
..ما تغير أن قطر تراجع دورها الإقليمي مع تغيير الحكام، وصار بمقدورها القول إنها لا تتدخل ولا تومن.
..ما تغير أن إقبال الملفات المفتوحة قد بدأ، وعلى تركيا وقطر إنبات قدرتهما على الخروج من الحرب.
..التسليم بأن حزب الله هو القوة الإقليمية الفائزة بحرب الإرادات.
..الطريق قضية الرهائن.
..ثمة عقل استخباراتي يعرف قيمة الفرص وكيفية التقاطها، يستحق التقدير هو اللواء عباس إبراهيم.
..تحية من صديق إلى صديق يستحق التحية.

رياضيات في الكلام

عندما تختصر أهداف الشركة المنافسة بإلحاق الخسائر بمنافسها بدلاً من تحقيق الأرباح، تبدأ بالاقتراب من الإفلاس... عندما يصبح همّ الحبيب تبرير تقصيره للحبيب لا منحه الثقة والاهتمام، يكون الحب قد دخل مرحلة الذبول ولو بعد يوم من ولادة عاصفة... عندما يصبح همّ الدول خوض حروب لإرباك انتصارات خصومها لا لتحقيق انتصارات لها، تكون الحرب قد شارفت على النهاية... هذه هي حال أميركا و«إسرائيل» والسعودية اليوم.

قالت له

قالت له: لو لم تكن في حياتي لكانت سواد ليل بلا نهار. فقال لها: على رغم فوضى ما أنال منك واللحظات الجميلة بيننا وفيض حنانك الساحر. أشعر أنك ترتكبن بتوّع مشاعرك التائهة، وأتساءل لماذا يصعب عليك انتقاء الكلمات بيننا في لحظات الخفاف، وتندلع حروبك القاسية عليّ، ولماذا يضيق صدرك بكلماتي الناعمة عتاباً عندما أتساءل عن التخصيص بالاهتمام؟
فقلت: لأنك حبيبي، فقال: لم أقل هذا لو لم يكن الآخرون الذين أعرف أنهم أقل مكانة وشأناً عندك يحظون منك بالتحضير والتأني لكل خطوة تقابل خطوة بعناية، فتجدين كل ترتيبات اللياقة لاستقبال لحظات تخصّصينها لهم بدقه وتخلقين لها مناخات تناسب ما تريدين منها من سائق التاكسي إلى مدير العمل.
فقلت: لأنك الدنيا التي أحيها بلا تصنّع، فهل تريدني أن أتغير وأصير في موعد رسمي معك؟ فقال لها: أكثر الطعام فائدة وصدقا بما يحتوي لا يجذبنا فإكهاه تزيّنت ألوانها وعبق رائحتها ونضارة محياها. والفرق كبير بين التصنّع وأن تقدّم الأفضل للأفضل، وهذه قيمة النفس الإنسانية المتواضعة، أن تجهد لتكون منصفة، لا أن تكثفي بأدعاء صدق المضمون ونقائه لتمارس استبداد الضحية أو استعباد المظلوم.